

ماكس نوردهو

(٢)

وأنحلال الام

لولا الفكر الانساني لتمطل التاريخ لان التاريخ في حقيقة امره نسيج من الرغبات والبواعث والانفعالات تتعارض في خيوطه منتجات العقل بما فيه من تصور وادراك لتكوّن في مجموعها صورة، هي التاريخ. لا تاريخ الملوك والدورات والحروب والثورات وحدها بل تاريخ الكون والفساد تاريخ الصخور والبحار والحيوان والنبات والانسان ونشوء صفاته العقلية والادبية وخصائصه الاخلاقية وعلى الجملة كل ما في الانسان من الظواهر التي نعرفها بالصفات انفسية. لان الفكر لاحد له. ولكل شيء في الوجود مظهر فكري خاص

وكما ان الفكر منشأ التاريخ كذلك تجد ان التاريخ قياس انشكر. فلو انك استمرضت حوادث التاريخ منذ ابد الازمان واستقرات منه منتج الفكر خلال العصور، استطعت ان تعرف ان كان في الانسان زعة الى التقدم والارتقاء أو كان فيه ميل الى الانحلال الاخلاقي والفساد

اما التاريخ قياس الفكر فيدنا على ان الانسان متجه نحو الارتقاء ضارب في اصول التقدم. قيس بين حاله في العصر الظرفاني الحديث من الوجهة الادبية او الصفات العقلية وبين حاله في عصور المدينات البائدة كمدنية بابل واشور ومصر فلا تلبث ان تتكون عندك فكرة صحيحة عما يزيد ان تثبت من ارتقاء الانسان

لا ريبه في ان الارتقاء الانساني من حيث الآداب المدنية او الاخلاق وادراك المنويات يدل على ان كفاءات العقل البشري قد تشكلت خلال كل عصر من العصور بمقتضى ما وصل اليه تكوينه العضوي من مدارج النشوء، والقياس بين حالة الانسان الممجى والانسان في القرن العشرين لا يبين برهان على انه يرتقي وانه ضارب في اصول التقدم بقدم ثابتة وان كانت بطيئة الخطى

كذا اذا رجعت الى عصر التاريخ المعروف تجد ان الآداب والمطالب في عصر

المحدث ايوناني احط منها في عصر شارلمان مثلاً . ولا نقصد بالآداب والمطالب قواعد انفسفة الفبيبة الضيائية التي لم تقم الا في عقول واضعيها بل نقصد بها كل ما لم يحكمه العرف العام على انه خارج عن حدود الآداب

وانك لتري ان الشخصيات الكبيرة والمفول الفياضة بالمعاني الفاضلة اكثر ما تكون ظهوراً في آخر عصور الانحلال وبدء الانقلابات الاجتماعية . ولا حاجة لنا باثبات ذلك بشواهد من التاريخ لان اقل الروافين على مبادئ التاريخ الاولية واكثرهم علماء بحقائقه يسلمون بذلك . لهذا نقضي بان الانسانية تتقدم وان تقدمها اشبه شيء بالتموجات الاثيرية ذوات التماوج . غير انها تنتج بالمجموع نحو السمات العالي من الاخلاق . تلك سنة النشوء العام . وما كان للانسان ان ينفلك عن طوقها او يخرج عن قطر الطبيعة ذاتها

اما اذا اردنا ان نطبق هذه الحقيقة على فكرة «نوردو» في الانحلال الاخلاقي فانا ننتهي الى نتيجة واحدة . هي ان فكرة «نوردو» لا تصح الا اذا طبقت على عصور الانحلال التي يمتد بها الارتقاء المادي دائماً . فان الصورة التي ابرزها عقل «نوردو» نعتبر احسن تمييز عن الحالات التي تقوم خلال عصور الفساد والانحلال

ولا جرم اننا في عصر انتقال اندرنا «نوردو» بسواته وابان لنا اصول الانحلال الضاربة في اخلاق ابناؤنا ولكنه انحلال سوف يمتد مظاهر الانقلاب التي ينتظر وقوعها فيه ارتقاء في الفايات تدلنا كل الشواهد القائمة من حولنا على انها تتجه نحو تقرير مبدأ الشموية ، الحب المتبادل والتعاون بين الشعوب ، وان عصرنا الحاضر انما تتحلل فيه اخلاق القومية والوطنية لتحقق الانسانية مرة اخرى في تاريخ ارتقاءها مبدأ قام في عقول الفلاسفة منذ خمسة وعشرين قرناً من الزمان



نستطرد من ثم الى الكلام في الصورة التي صور بها «نوردو» عصور الانحلال متخذاً من الحالات التي قامت في عصره أمثالاً أبرز بها من الفساد الاخلاقي صورة ان قصرت على عصر خاص من العصور فانها ولا ريبه ادق صورة

جاد بها عقل مبتكر وخلق ثابت في زمان اخذ ينحرف فيه الماضي المهوك. نتداعي
عن جنين المستقبل المملووحياة وقوة

علمتنا التجارب ان اية فكرة انما تستمد صورها وتكوينها من لغة الامة التي
سبقتم الي وضعها . فان المؤرخين في العادات واللغات انما يلجأون الي هذه
القاعدة لانهم يبحثون عن الاصول الاشتقاقية في اللغات واجمعين الي منشأها
وأصلها متتبعين خطي نشوئها

اما اصطلاح « آخر زمن » ففرنسوي صرف . لان الحالة العقلية التي يعبر
عنها هذا الاصطلاح وينطق بلسانها العامت قد نبثت في العقل الفرنسوي

وقد شاع هذا الاصطلاح فعم استعمله في كل اللغات الحية . حتى في اللغة
العربية . واما الحالة العقلية التي تتخذ هذا الاصطلاح وسيلة لابرار ذاتيتها فدائمة
في كل مكان غير انها لا تخرج في اكثر الحالات عن مجرد تقليد لعادة اجنبية

ولا يميزنا الدليل على سخافة هذا الاصطلاح . فانه اصطلاح لا يولد الا في
عقل طفل او في غيظة همجي تقوم في عقله فكرة ان «انقرن الزماني» الذي يعيش
فيه عبارة عن كائن حي يولد كما تولد الحيوانات او الانسان . ويعيش منتقلاً في
ادوار الحياة واحوارها متخطياً طور المراهقة الي الفتوة ثم الي الرجولة الكاملة
ومن ثم الي الشيخوخة والانحلال ليموت بعد ان يصر مائة عام وازحاً في اواخر
ايامه تحت مبرحات الآلام

لهذا ترى ان الشعب الفرنسوي يدافع نفسي عقلي انما ينسب شيخوخته
وكدورته وانحلاله الاخلاقي الي قرن ما من الزمان المطلق غير المحدود فيقول
المفكرون فيه « آخر زمن » واحرى بهم ان يقولوا « نهاية امة »

وسمها يكن من امر هذا الاصطلاح وما فيه من سخافة فان التكوين العقلي
الذي يدبر عنه قائم قياماً فطرياً في عقول الكثيرين من ذوي الاثر في تربية الناشئين
عقلياً واخلاقياً. لذلك ترى ان نزعة هذا المصرخيلط من القلق المصحوب بحمي
الفساد والحول المعنت ومنح من النبوءات المحزنة الملة المقرونة بأخبت مظاهر
الكفران بالجيل وجحود الايدي السداة بالخير

ان الشعور السائد لشعور ينذر الناس باقتراب الفناء ويلقي في روعهم ان

الانقراض والزوال آخذان فيهم بأعظم الاسباب فكأنهم من النفخة في الصور قاب قوسين أو أدنى . لهذا نجد ان اصطلاح « آخر زمن » عبارة عن شكاة وتعلم بل صرخة سامتة بيد انه اعتراف بليغ بميد عن محتملات الجدال الكلاسي والاطناب الاجوف والمعاذير الخرقاء

ولئن كانت المعتقدات القديمة قد وسمت الاعتقاد في فناء الآلهة وانقراضها فلقد غشيت العقول التي اتبناها هذا الزمان نوبات ازمتها الاعتقاد بان انحلال الامم امر واقع محتوم وان الشمس والسيارات إنما عمّن في سبيل الاضمحلال وان النوع الانساني وما أبدع العقل من طريف النظم والمنتجات إنما يسير الى الفناء مسيراً في ذلك خطرات كون ضارب في سبيل الفساد

ليست هذه باول مرة استولى فيها على الناس دعر الخوف من فساد الكون وفناء العالم . فان فكرة كهذه قد استملكك من قبل مشاعر النصراني في اوربا إبان القرن الماشر . غير ان هناك فرقاً كائناً بين حيرة منشأها الاعتقاد وقلق مرجمة الفساد

ان الحالة النفسية التي يخلقها الاعتقاد في « آخر زمن » في الجماعات اشبه شيء بحالة شخص أياًسة المرض وأقنطه السقام فقام في ذهنه انه يتقدم ببطء ولكن الى الموت في وسط طبيعة أبدية الحياة فائضة بكل معاني الجمال الخالد

إن في اصطلاح « آخر زمن » لقسطاً كافياً من التموض يهيهة تمام التهيئة لكي ينقل من المعنى ما يعوز تيار الافكار السائدة من ليس وابهام . شأنه في ذلك شأن كلمات « الحرية » و « الناية » و « الارتقاء » و « المساواة » . فان هذه الكلمات إن خيل اليها أنها تتضمن أفكاراً وتصورات فانها ليست في الواقع إلا أصواتاً جوفاء . كذلك نجد ان اصطلاح « آخر زمن » ليس بشيء في ذاته وأن ما فيه من الشأن والخطر إنما يقاس بمقتضى ما للاخذين به من كفاءة عقلية



لا يدلك على المعنى الحقيقي الذي يتقله اصطلاح « آخر زمن » مثل وقوفك على حوادث أطلق عليها هذا الاصطلاح ! ولقد استجمع لذلك « نوردو » امثالاً آتتطفها من المجالات الفرنسية التي تتبع قراءتها طامنين كاملين . واليك بعضها

(١) قميس يحاكم لانه نال بالسب من راعي اسكنية العام. تنتهي الاجراءات فينهب الرهبان اخوانه هذه الفرصة ليوزعوا على مخبري الجرائد في الحكمة دفاعاً أعد التهم منه نسخاً من قبل . ولما ان يلزم بغرامة يستدر أكف الناس من طريق الاكتاب فيجمع عشرة اصناف الغرامة . ثم يطبع كتاباً يرد به عمله فيحشوه بكل ما وصل اليه من عبارات التأييد . ومن ثم يظوف أنحاء البلاد عارضاً نفسه في كل كنيسة امام جمهور أخذته الرغبة في مشاهدة رجل الساعة ووحيد الدهر فلا تفوته فرصة الطواف عليهم بصحاف الاستجداء . فهو قميس آخر زمن

(٢) ارسلت جثة السفاح « برازيلي » Pranzini بمد تنفيذ حكم الاعدام لتشرح . فيقطع رئيس البوليس السري جزءاً كبيراً من جلد الرجل لانه كان موشوماً ليصنع منه علماً للكازر ومحافظاً لبطاقات الزيارة له ولبعض اصحابه . فهو موظف آخر زمن

(٣) رجل أمريكي يحتفل بزفافه في معمل غاز ثم يستقل وعروسه « بالوناً » اعد من قبل ثم يبدأ شهر العسل بين السحاب . فهذا عرس آخر زمن

(٤) ملحق في السفارة الصينية ينشر تحت اسمه مؤلفات ذات قيمة في اللغة الفرنسية . ويفادى المعارف المالية في شأن قروض عظيمة لحكومته . ويأخذ من المعارف مقادير كبيرة من النقود لنفسه قبل ان يتم المقدم . ثم يظهر من بعد ذلك ان الكتب من تأليف سكرتيره الفرنسي وانه خدع المعارف المالية . فهو سياسي آخر زمن

(٥) فتاتان من فتيات الاسر الكبيرة صديقتان في التعليم جلسنا نتحدثان فتنهد احدهما تمهدة عميقة . فتسألها الاخرى « ما السبب » . فتجيب — « اني أحب راؤول وراؤول يحبني . فتقول رفيقتها « انه شاب جميل حسن البزة والصورة . ولماذا تشربين مجزن » — « نعم لانه لا يملك شيئاً . وليس بشيء . وأبواي يريدان أن يزوجاني من البارون . وهو رجل بادن أصلح الرأس قبيح الوجه » فتقول لها رفيقتها — « حسن . تزوجي من البارون بدون تخطئ ثم عرفيه براؤول » . فهن فتيات آخر زمن



أمثال هذه الحالات تدلنا كيف يفهم هذا الاصطلاح في مهد نشأته . وتلك

امثال من الخبايا المحبوبة ورائه . وهي تدل في اوسع معانيها على التحرر من
التظامات التقليدية التوروثية تخلصاً عملياً تاماً . اما التحرر من آثار التقاليد فلا
يقوم له من معنى في اذهان الآخذين بأداب « آخر زمن » أبداً من اطلاق
الاهواء من اسرار العقل والاخلاق لتمضي جامعة في الطريق التي يسلم بها الى الناحية
الحيوانية في الانسان

من الآخذين بوحى « آخر زمن » آنانبون قست قلوبهم وفتنتهم موحيات عقول
نكت قتلها اسفاف النزعات القائمة من حولهم فهم لا يقيمون لآخواتهم في الانسانية
وزناً الا بمقدار ما يمود عليهم من نفع في مشاركتهم الحياة ويطأون باقدامهم كل
الحوائل الادبية القائمة بين النفس الانسانية وبين التطوح مع قواسر المطامع
الاشمعية وحب الزخارف الدنيا . ومنهم مزدرون بالدنيا متهاونون بالحياة لا يأنفون
من تسود النزعات السفلية التي إن عجزوا عن ردها بوازع من الفضائل اخفوها
وراء ستار من الختل والخادعة والرياء . ومنهم مؤمنون بالدين . غير أنهم يحاولون
التخلص من المذاهب الفضلى فيرتطمون في التسفل الى انكار ما يمد الحسيات
آخذين بما توحى اليهم فلسفة الطواغر الكونية . ومنهم حسيون يحدون الفن
عن معاني المثالية والخيال فيخرج من يدهم هيكل مواتاً لا يحدث من روعة ولا
يبعث من انفعال . ذلك في حين ان الكل يجمعون على ضرورة التخلص من النظام
الموضوع الثابت الدعائم . وهو في الواقع نظام لا يتكرر مفكر انه قد ارضى المنطق
آلآفاً من السنين ولم يحل بين الفن الناضج وبين إبراز صور اجتماعية اخلاقية
فيها كثير من بواعث الجمال

يقول « نوردو » إن السواد الاعظم من الطبقات الوسطى والطبقات الدنيا
في المجتمع ليسوا « بأخر زمن » بمقتضى مركزهم الاجتماعي . إذن « فنوردو »
يمتد ان انحلال الصورة المدنية الحاضرة قد بدأ من قبة الجمية . ولا ريب في ان
الانحلال اذا بدأ بالطبقات المنتقاة كان اشجع صور الانحلال التي شهدتها التاريخ
الانساني

اسماعيل مظهر